

الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رؤيا في السماء

بقلم الأديب فليكس فارس

إنك تتناول أدق الباحث الاجتماعية التي شغلت ومازالت تشغل المفكرين في كل عصر وفي كل بلاد، تتناولها وتخوض غمارها ممتكفاً على موضع السر في ثقافتك العربية، مستهتراً بأضواء الكتاب الحق وحكمة من اهتموا قبلك في هذا الشرق النير، فكانت عبادتهم فلسفة، وكانت صلواتهم استغرافاً وتفكيراً كثير من مجددي الأنشاء في هذا الزمان ينحرفون عن ثقافتهم وغرائزهم القومية، فينتحلون مذاهب كتاب الغرب وأساليبهم، أما أنت فمن الفئة القليلة الآخذة بروح الشرق لأجاء الشرق، النافذة في الأحفاد أرواح أجدادهم قرأت لك في منارة العرب الوهاجة، في (الرسالة)، ما تنحف به العالم العربي من طرائف وبدائع، فأيقنت أنك من الكتاب العالمين الذين يستمدون آياتهم من الألهام، ويستجلون الحقائق من قلب الحياة الخفياق، وما أقل من ينحنون على أنفسهم في هذه البلاد حين يكتبون، وما أكثر من يستطعمون الرواسم وينقلون مقلدين مشوهين!

بين ما نشرته لك (الرسالة) قطعة (رؤيا في السماء) وقمت عندها مأخوذاً بروعتها، فأردت أن أنقلها الى اللغة الفرنسية لشهرها في مجلة أدبية في باريس، وقد ترجمتها فجاءت بما أقيمت لها من أسلوبك الفخيم دليلاً على استقلال لغة العرب عن كل هذه الأساليب التي ينتجها أكثر كتابنا مأخوذة عن الأسلوب الغربي، وعلى تفرديتها بهذا الایجاز المعجز وفيه سر سحرها وبهائها

إن في مقالك من الدفاع عن حق الحياة وواجبات الحياة ما يبرز الوحي الذي أنزل على عيسى ومحمد (عليهما السلام) تحت سماء الشرق، فلم ينفذ الغربيون الى كهبه في مبادئ المسيحية إذ ذهبوا منها في مسألة التبتل مذهباً أتى به الحوارى بولس متأزراً بفلسفة الرومان وضائفة أزمنة الاضطهاد، لذلك ترى الأمم الغربية

عند ما تقف واجفة من تناقص النسل تهب الى معالجة الاخطار المحدقة بها متوسلة بنظريات الكفاح والتفوق على الأمم المجاورة، فعلى ترى طفنات الأطفال فيالق للجهاد في ساحات الحروب من أجل المال، وكثلاً من لحم تمصرها الآلات عصرراً فتندفق بدمائها رحيقاً تنجرعه المدينة سما زعافاً

إن الغربيين ليفوتهم أن يجاروا أعداء الأسرة والنسل بالمبادئ الروحية تتناول ما وراء هذه الحياة. وما أذكر مما قرأت لكتاب الغرب أنهم شعروا بالأبوة كما شعرت بها أنت مخترفة حجاب الموت لتتجلى عند هدفها الأسمى في عالم الخلود

إن الأدب الغربي يقف بالأبوة عند نهاية الشطر الثاني من الحياة، فهو يرى الأرحام تدفع بالأجنة للقبور لا للأبد، لذلك أردت ألا يفوته ما أتيت به في مقالك الرائع من دعوة هي أقوى ما يتوسل به داع الى حق الله في تناسل عباده. وقد ترجمت هذا المقال لا مباحة روح الشرق العربية التي تهب من كل سطر فيه غسب، بل لأنشر أيضاً في الغرب ما استوحته عبقرتك الشرقية من مبادئ الهداية الخالدة

إن هذا الحديث الذي أنطقت به أبا خالد وشيخه أبا ربيعة، خير ما ابتكرته الآداب المالية في هذا المطلب، وهذه الرؤى التي تقبض على الروح وترفعها قسراً الى عالم الخفاء لتبسط من الحق أمام المتطلعين الى ما وراء المادة ما يشعرون به في قرارة نفوسهم وينكروها عليهم عقلهم المنتبه المحلل الفارق في لجج الزائلات من قوة ومال ودول وجنود وحروب

غير أنني قبل أن أعلق على مقالك بما لا أرى بداً من إرادته بالفرنسية، أجدني مضطراً لا يضح وجيز لا أراك تضن به، فإن في ختام مقالك ما يفسح للفكر مجالاً للذهاب بمذاهب مختلف اختلافاً بيناً عند النتيجة التي ترمى إليها

قلت: إن أبا ربيعة وقف في آخر حمله تمر به طغمة الخالدين وتلقى إليه بكلمة (المشوم) حتى مر غلام هو آخرهم فقال له:

«كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله، ثم ماتت امرأتك وتمزنت على ما فاتك من القيام بحقها، فرمينا عملك درجة أخرى، ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبنوا»

فهل لك أيها الأستاذ الكبير أن تأتينا بايضاح عما رآه الحق

الهواء . وأعاد التجربة فالتجربة بتلك المثارة التي عرفناها عن «لوفن هوك» ، وكسر قبابات وكب المرق على صدر قميصة ووسخ يديه ، ولكنه لم يخرج على غير تلك النتيجة التي سلفت

- ٥ -

انتصر اسبيلزاني فصاح بتجاربه ليعلم أوروبا ، فتردد صدها شرقاً وغرباً ، وسمعه نيدم ويفنون جلساً على أنقاض نظريتهما البالية ينعيان أطلالها في كآبة ظاهرة وحزن باد . وما كان لهما مندوحة من هذا ، وقد أفسدها عليهما هذا الطلياني بحقيقة واضحة بسيطة . فلما اطمان على الذي كان ، جلس يكتب . وبمقدار براعته في العمل كان بارعاً في المكتب ، وعلى حسن جلاله بالقبيب والعدس ، كان يحسن الجلاد بالقرطاس والقلم ، على شريطة أن يكون قد اطمان إلى أن حقايقه العملية قد سبقت فغلبت في الصراع خصيمه ، وهذا ما كان ، فهو في هذا الوقت كان قد اطمان إلى انصراف نيدم ، وإلى ضياع نظريته الفكيمة التي تنشئ الشيء من لا شيء . وكان اطمان إلى أن الحيوانات جميعاً - حتى تلك الحيوانات الصغيرة - لا تأتي إلا من حيوانات مثلها عاشت من قبلها ، وإلى أن هذه المكروبات الصغيرة تظل طيلة حياتها مكروبات من النوع الذي كانته آباؤها ، فإذا هي أنتجت كان نتاجها من جنسها ؛ كذلك الحمار في حياته لا يستحيل جملاً ، وهو لا يأتي إلا عن حمار ، فإذا ولد فإتما بدسحاراً وصاح اسبيلزاني يقول : « واختصاراً قد ثبت أن نيدم مخطئ » ، وقد أثبت فوق هذا أن في علم الأحياء نظاماً وقانوناً ، كما أن في علم الأفلاك قانوناً ونظاماً » ثم أخذ يصف ما تكون حال هذا العلم لو أن نيدم لم يجد من يراقبه ويحاسبه ، إذن لعشنا في اختيال وإرتياع من تزق هذه « القوة النباتية » المنقلبة الهوجاء تلك القوة التي إن هي شاءت أخرجت من الشيء ضفدعة ، وإن هي شاءت أخرجت منه كلباً ؛ أو هي تخرج منه اليوم فيلاً ، وغداً عنكبوتاً ؛ أو تخرج منه في الصباح حوتاً سابحاً ، وفي الظهر بقرة حلوباً ، وفي المساء إنساناً ناطقاً

قيضى على نيدم ، وقضى على قوته النباتية ، وأصبح الانسان يستمرى العيش ، ويستنشق الهواء في أمان وسلام ، فلا تروعه تلك القوة الرهيبة اللعينة التي كان يتخيلها مخبوءة في هذا الركن ووراء ذلك الحائط تنهمز الفرصة لتحويله فيلاً أو تخاق منه غولاً

للمعضل الذي هو فيه ، فجري الى معمله ، وكان تضده قد تغطى بقوارير مكسورة وزجاجات مهجورة تبعثرت جميعها عليه فكانت شواهد على ما كان فيه رجلنا من ترك ويأس . ومد يده الى قطر فأخرج منه قبايه . لقد كان ضل الطريق واليوم اهتدى اليه ، وعمما قريب يثبت أن نيدم مخطئ ضال . وتطلى عملاً رثييه وُسُفهما ، ثم زفر زفرة طويلة أبدلته من ضيق سعة ومن أزمة فرجا . ومع أنه لم يكن أثبت أن ما بدا له هو التفسير الحق لصغير الهواء ، إلا أنه وثق بالذي ارتآه وثوقاً آثر معه أن يستعمل الفبطة والسرور . ونظر الى القبابات وابتسم وقال : « كل القبابات التي استخدمتها فيما سبق كانت لها رقبة واسعة استلزمت حرارة كثيرة وتسخيناً طويلاً لتسيح ويتم تختمها . وهذه الحرارة الكثيرة تطرد الهواء من القباية قبل لحامها ، فلا يجب إذن أن يتدفع الهواء فيها إذا فُض اللحم »

وارتأى أن ما قاله نيدم عن إغلاء القبابات للمحمومة في الماء وإفساده مرونة ما بداخلها من الهواء كلام هراء . ولكن أنى له بآيات ذلك ؟ أنى له بخرم القباية دون أن يطرد هواها ؟ وجاء شيطانه بوسوس اليه ، فأخذ قباية أخرى فوضع بها بذراً وملاً بعضها بالماء ، وأدار رقبتها في اللب الشديد حتى ساحت وضاعت حتى كادت تلتمح إلا نقباً صغيراً ضيقاً يصل بينها وبين هوا الجو . عندئذ برد القباية ؛ حتى إذا تمت برودتها قال : « إن الهواء بداخلها لا بد أن يكون مثله بخارجها . ثم جاء بلهب صغير سلطه على الثقب الباقي وهو كمين الابرة فسده في لحظة دون أن ينطرد من هوا القباية شيء . فلما اطمان الى ذلك وضع القباية في الغلاية وأخذ يرقبها ساعة ، وبينما هي تتأرجح وترقص في الماء كان هو ينشد الشعر ويترنم بالفناء . ثم نحأها أباماً ، وفي ذات صباح جاء ليفتحها وهو واثق مما سيكون ، فأشعل شمعة وأدناها من فم القباية ، وفي حذر شديد كسر قباها فسمع صغيراً ، إلا أن لذب الشمع لم يتجذب الى القباية في هذه المرة بل مال عنها ، دليلاً على أن مرونة الهواء داخلها أكثر من مرونته خارجها !

فكل هذا القلي لم يفسد مرونة الهواء ، بل على النقيض قد زاد مرونة ، تلك المرونة التي قال نيدم بضرورتها لتلك القوة النباتية العجيبة . وأخرج اسبيلزاني من المرق القطرة فالقطرة ، وعبثاً تطول أن يجد فيها من الأحياء شيئاً برغم ازدياد مرونة

لقوانين الطبيعة انصياح الخيل والفيلة والرجال لها . ووضع قطرات من أحسبته وهي تموج بالمكروب على قطع من الزجاج المنبسط ، ونفخ فيها من دخان تبغ ، ثم أسرع فنظر إليها بعدسته ، ثم ضحك مِلءَ فيه عندما رآها تهارب لتتبع أثر دخانه ، وأطلق عليها شرراً كهربائياً ، وعجب لما رآها تطيش وتميد ، ثم تمتطى وتموت سريعاً

قال اسبيلزاني : « إن بذور هذه الأحياء الدقيقة أو بيضها قد يختلف عن بيض الدجاج أو بيض الضفدع أو بيض السمك ، وهذه الأحياء نفسها قد تصمد للماء النقي في قباباتي المختومة ، ولكن عدا هذا فهي يقيناً لا تختلف عن سائر الحيوانات . ولم يكذب أن ينطق بهذا اليقين حتى عاد يسترد ما انقلت به من أنفاسه

فدأت يوم وقد انفرد في معمله قال لنفسه : « كل حيوان على ظهر هذه الأرض لا بد له من الهواء ليحيا ، ولإذن فلأتبين حيوانية هذه الأحياء الصغيرة فأضعها في فراغ خلو من الهواء وأرقيها وهي تموت » . وبراءة بيته مطاً بالنار من أنبوب الزجاج السميك أنبوباً شمرتياً رقيقاً كما كان يصنع « لوفن هوك » وغمس أنبوبة منها في صرق يبعج بتلك الأحياء ، فصعد فيها منه شيء . وأساح أحد طرفيها في النار فسده ، ووصل الطرف الآخر المفتوح بمضخة قوية لتفريغ الهواء ، وشغلها ، ولصق عدسته بجدار أنبوبة الزجاج الرفيع ، وأخذ يصوب بعصره إلى تلك الأذرع الدقيقة التي منحها الله لتلك الأحياء لتجذبها في الماء ، وظل يرقب من ساعة لأخرى علّه يجد في حركتها المنتظمة الهادئة مَيِّدانا وطيَّشانا ، وأخذ يترصد الفناء بتلك الأحياء ، ولكن المضخة ظلت في دورانها ، وظلت الأحياء في جريانها وروغائها متناسية صاحبتنا العالم ومضخته البديعة ، متجاهلة هذا الهواء الذي يقول بلزومه لحياة الأحياء . وعاشت أياماً . وعاشت أسابيع . وأعاد اسبيلزاني تجربته المرة بعد المرة . هذا غريب ! . هذا محال . لا يعيش حي بلا هواء ، كيف تتنفس هذه الأحياء . وكتب إلى صديقه « بونيت »

Bonnet متمججاً مستغرباً : —

« إن طبيعة هذه الحَيَوانات مدهشة . فانها تعيش في الفراغ مثل عيشها في الهواء ، وتنشط في هذا نشاطها في ذلك ، فهي

ومرى اسم اسبيلزاني في جامعات أوروبا يطع كالناس ، ويتألق كالنجم . وأيقنت جماعاتها العلمية بأنه عالم العصر الأوسد وكتب إليه فريدريك الأكبر Frederick the Great كتباً طويلة ، ويمينه أمضى براءة تعيينه عضواً في أكاديمية برلين . وماريا تريزا maria Theresa امبراطورة النمسا وعدوة فريدريك اللدودة ، ناست هذا الملك العظيم في تكريم هذا العالم الكبير ، فنفسته ، وذلك أنها عرضت عليه أن يكون أستاذاً في جامعة بافيا Pavia المتيقة بلباردى Lombardy فانفذت إليه رسلاً من عظام مستشاريها فجاءوه في حفل ضخم ، وموكب نفخ ، مثقلين بكتب ملكية ، وأختام امبراطورية ، يتوسلون إليه في قبول المنصب عسى أن يمد جامعتهم فيه منقذها من السوء الذي هي فيه ، ورافعها من الدرك الذي هبطت إليه . وجرت بينه وبينهم مناقشات ، وجرت مباحثات ومساومات ، في الأجر الذي يتقاضاه اسبيلزاني ، فقد كان دائماً يحسن جمع المال كلما أمكنته الفرصة . وانتهت تلك الأحاديث بقبوله أستاذية التاريخ الطبيعي بالجامعة ، وبتنصيبه أميناً لمتحف التاريخ الطبيعي في بافيا كذلك وذهب إلى متحف بافيا فوجده خاوياً خالياً . فشر من ساعده ، وأخذ يحاضر في كل ما هب ودب ، ويلقي دروساً في الجمهور يضمها تجارب كبيرة هائلة يجربها على سممهم وأبصارهم فهالت الناس وراعتهم ، لأن النجاح كان يأتيها دائماً من حلق يديه ، وأراد أن يملأ متحفه الخالي فأرسل إلى هنا وإلى هناك في طلب مجموعات من حيوانات عجيبية ونباتات غريبة وطيور لا يعرفها القوم . وذهب هو بنفسه إلى الجبال فتسلقها على خطورة مرشقها ، ورجع منها بركاثر كثيرة وخامات غالية . وذهب إلى البحار بصطاد قروشها الفترسة ، وإلى الغاب يقتنص من ذوات الريش كل ذات لون بهيج . ذهب كل مذهب ليس من اليسير تحقيقه ، وضرب كل مضرب ليس من الهين تصديقه ، وكل هذا في سبيل الجمع لمتحفه ، وفي سبيل التخفف من ذلك النشاط الجهم وتلك الطاقة الصخابة التي امتلأ بها جلده ففرجت به عما وبم العرف به العلماء من طائفة وهدوء .

وفي الفترات التي تخللت هذا التجميع وهذا التدريس ، كان ينفلت إلى معمله بأمرائه ومجاهره فينقله على نفسه ، ويجري فيه التجارب الطويلة ليزيد في إثبات أن الأحياء الصغيرة تنصاع